باب ما جاء من فضل الصدق
لذوي الآداب وما كره من الكذب لذوي الألباب

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يصلح الكذب في جد ولا هزل».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إذا كذب العبد تباعد الملك منه ميلًا لنتن ما جاء منه. وقال: لسان الصدق خير للمرء من المال يأكله ويورثه.

وقال المهلب بن أبي صفرة: ما السيف الصارم في يد الرجل الشجاع بأعزله من الصدق.

وكان يقال: الصدق قوة والكذب عجز. أنشدني بعض الأدباء:

لا يكذب المرء إلا من مهانته ... أو عادة السوء أو من قلة الأدب
لجيفة الكلب عندي خير رائحة ... من كذبة المرء في جد وفي لعب

وكان يقال: لا رأى لكذوب ولا مروءة لكذاب. ويقال: لا تستعن بكذاب؛ فإنه يقرب لك البعيد، ويباعد لك القريب. وأنشدني:

وكن صادقًا في كل شيء تقوله ... ولا تك كذابًا فتدعي منافقًا

وقال آخر:

الكذب عار وخير القول أصدقه ... والحق ما مسَّه من باطل زهقا

وأنشدني غيره:

الصدق مناجاة لمن هو صادق ... من وترى الكذوب بما يقول يويخ

وقال أبو العتاهية:

كن في أمورك ساكنًا ... فالمرء يدرك في سكونه

ش واعمد إلى صدق الحديث ... فإنه أزكى فنونه

رب امرئ متيقن ... غلب الشقاء على يقينه

وحدثني بعض شيوخ الكتاب، قال: حدثني علي بن هشام قال: قال لي محمد بن الجهم ذات يوم: يا أبا الحسن، الكذاب والموات بمنزلة واحدة. قلت: وكيف ذاك؟ قال: لأن علامة الحي النطق ومن لم يوثق بنطقه فقد بطلت حياته.

والذي جاء في ذلك يطول شرحه، ويكثر وصفه والكلام فيه يتسع، وأنا أفرد لهذا الباب كتابًا، وأرصفه أبوابًا، أبين فيه فضل الصدق على الكذب؛ ليرغب فيه ذوو المروءة والأدب إن شاء الله تعالى.

وأما ما جاء في إنجاز العدات، عن ذوي الأخطار والمروآت، فكثير يكثر عدده، ل أمده، وقد شرحت لك بعض ذلك لتقف عليه إن شاء الله تعالى.

باب ما جاء في قبح خلف المواعيد وما يلحق صاحبه من اللوم والتنفيد

اعلم أن قبح ما استعمله أهل الأدب مطل العدات، وقال المثنى بن خارجة: لأن أموت عطشًا أحب إلي من أن أخلف موعدًا.

وروِّينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ثلاث علامات في المنافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم؛ إذا حدَّث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف». وروي عنه أنه قال: «عدة المؤمن أخذ بالكف».

وقال بعض الأعراب: وعد الكريم تعجيل، ووعد اللئيم مطل وتسويف.

وكان يقال: اليأس أحد الراحتين. وأنشدني يعقوب بن يزيد التمار:

متى ما أقل يومًا ليطالب حاجة ... نعم يا فتى افعل وذلك من شكلي
وإن قلت لأبيتهنا عن مكانها ... ولم أوذه فيها بجر ولا مطل

وأنشدني آخر:

إذا قلت في شيء نعم فأتمه ... فإن نعم دين على الحرِّ واجب
وإلا فقل لا واسترح واربح بها ... لكي لا يقول الناس إنك كاذب

وأنشدني آخر:

لا تقولن إذا ما لم ترد ... أن تستم الوعد في شيء نعم
وإذا قلت نعم فامض بها ... بنجاح الوعد ان الخلف ذم

وأنشدني إبراهيم بن محمد النحوي:

أنت الفتى كل الفتى ... لو كنت تفعل ما تقول
لا خير في كذب الجوا ... د وحبذا صدق البخيل

وكان يقال: اعتذار من منع أجمل من وعد ممطول. وقال علي بن هشام: أمرني المأمون بحاجة فأخرتها؛ فكتب إليَّ:

تعجيل جود المرء أكرومة ... تنشر عنه أحسن الذكر
والحر لا يمطل معروفه ... ولا يليق المطل بالحر

وكان يقال: المعروف يحتاج إلى ثلاث؛ تعجيله وكتمانه وإتمامه.

وأنشدنا ليزيد بن جبل:

يا صانع المعروف كن تاركًا ... ترداد ذي الحاجة في حاجته
فشر معروفك ممطوله ... وخيره ما كان من ساعته
لكل شيء يرتجى آفاته ... وحسبك المعروف من آفته

وقال آخر:

صل من أردت وصاله وإخاءه ... إن الأخوة خيرها موصولها
وإذا ضمنت لصاحب لك حاجة ... فاعلم بأن تمامها تعجيلها

وقال آخر:

لا تنشرن مواعيد وتسندها ... إلى المطال فما يرضى به الأدب
لا تطالبنَّ بمنع المال محمدة ... إن المحامد بالأموال تكتسب

وكان يقال: لكل شيء آفة، وآفة المعروف المطل. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لكل شيء رأس ورأس المعروف تعجيله.

وفي وصية عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بني، لا تعدوا الناس بما لا تناله أيديكم. ويقال: إذا وعدت الرجل نائلًا ثم مطلته به فقد أوفاك ثمن معروفك عنده.

وأنشدنا لدعبل بن علي الخزاعي:

إياك والمطل أن تفارقه ... فإنه آفة لكل يد
إذا مطلت امرءا بحاجته ... فامض على مطله ولا تجد
فلست تلقاه شاكرًا ليد ... قد كدها المطل آخر الأبد

وللفقيمي أيضًا في مثله:

ما كلف الله نفسًا فوق طاقتها ... ولا تجود يد إلا بما تجد
فلا تعد عدة إلا وفيت بها ... ولا تكوننَّ مخلافًا لما تعد

ولدعبل أيضًا في مثله:

وأرى النوال يزينه تعجيله ... والمطل آفة نائل الوهاب

وكان يقال: بذل جاه السائل ثمن معروف المسائل. وقال أكثم بن صيفي: السؤال وإن قلَّ ثمن كل معروف وإن جل. أنشدني محمد بن إبراهيم الهمذاني لعلي بن ثابت الكاتب:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله ... بذلًا ولا نال الغني بسؤاله
وإذا السؤال مع النوال وزنته ... رجح السؤال وخفَّ كل نوال

وقال بعض الحكماء: أحي معروفك بإماتة ذكره وعظمه بتصغيرك له. أنشدني أبو العباس ثعلب لأبي يعقوب الخريمي:

زاد معروفك عندي عظمًا ... أنه عندك مستور حقير

وتناساه كأن لم تأته ... وهو عند الناس مشهور كبير

وقال عدي بن حاتم: لا يصلح المعروف إلا بثلاث؛ تعجيله وكتمانه وتصغيره؛ لأنك إذا عجلته هنيته، وإذا كتمته استهنته، وإذا صغرته عظمته.

(وشرح) كل ما جاء في ذلك يطول، والاختصار أحسن مِن الإكثار وقد ذكرت معنى هذا الباب مع ما يلائمه من الأخبار في كتاب لطيف التأليف والاختصار هو كتاب «البث والحث» غنينا بما فيه عن الزيادة، وعن التطويل والإعادة، ونحن نتبع هذا الباب بما ضمناه على الحث على كتمان السر؛ ليرغب فيه ذوو الأدب والقدرة إن شاء الله تعالى.

باب الحث على كتمان السر والترغيب في حفظ ما حنت عليه ضلوع الصدر

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « استعينوا على حوائجكم بكتمان السر». وكان يقال: سرك من دمك، فانظر أين تجعله. وكان يقال: ما كتمته من عدوك فلا تطلع عليه صديقك. وقال المهلب بن أبي صفرة: من ضاق قلبه اتسع لسانه. وأنشدني أحمد بن يحيى لقيس بن الحدادية الخزاعي:

بكت من حديث نمه وأشاعه ... ولصقه واش من القوم واضع
بكت عين من أبكاك لا يشجك البكا ... ولا تتخالجك الأمور النوازع
ولا تسمعي سري وسرك ثلاثًا ... ألا كل سر جاوز اثنين ضائع

وأنشدني لبعض الطالبيين:

أكافي خليلي ما استقام بوده ... وأمنحه ودي إذا يتعتب
ولست ببادي صاحبي بقطيعة ... ولا أنا مفشي سره حين أغضب
عليك بإخوان الثقات فإنهم ... قليل فصلهم دون من كنت تصحب
وما الخدن إلا من صفا لك وده ... ومن هو ذو نصح وأنت مغيب
إذا منا وضعت السر عند مضيع ... فذو السر ممن ضيع السر أذنب

وقال معاوية بن أبي سفيان: الحازم من كتم سره من صديقه؛ مخافة أن تبدل صداقته عداوة فيذيع سره. وقال بعض الشعراء:

تواقف معشوقين من غير موعد ... وغيب عن نجواهما كل كاشح
وكلت جفون الماء عن حمل مائها ... فما ملكت فيض الدموع السوافح

وإني لأطوي السر عن كل صاحب وإن كان للأسرار عدل الجوانح

وكتب عبد الملك بن مروان ببعض سره إلى الحجاج بن يوسف، ففشا حتى بلغه ذلك عبد الملك يعاتبه، فكتب إليه: والله يا أمير المؤمنين ما أخبرت به إلا إنسانًا واحدًا. فكتب إليه عبد الملك: أن لكل إنسان نصيحًا يفشي إليه سره. وقال بعض الشعراء في ذلك:

ألم تر أن وشاة الرجا ل لا يتركوا أديمًا صحيحًا
فلا تفش سرك إلا إليك فإن لكل نصيحٍ نصيحا

قال آخر:

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها فسرك عند الناس أفشى وأضيع

وقال آخر:

أمت السر بكتمان ولا يبدون منك إذا استودعت سري
فإذا ضقت به ذرعًا ولا تجعلنَّ سرك إلا عند حر

وقيل لأعرابي استُودع سرًا فكتمه: أفُهت؟ قال: لا بل نسيت. وأخبرني أحمد بن عبيد قال: أخبرني ابن الأعرابي، قال: قيل لأعرابي: كيف كتمانك السر؟ قال: أجحد لمخبر وأحلف للمستخبر. وقيل لأعرابي: كيف حفظك للسر؟ فقال: أنا لحده. واستحسنته في كتمان السر قول كثير:

أتى دون ما تخشون من بث سركم أخو ثقة سهل الخلائق أروع
ضنين ببذل السر سمح بغيره أخو ثقة عف الوصال سميدع
أبى أن يبث الدهر ما عاش سركم سليمًا وما دامت له الشمس تطلع

وله أيضًا:

كريم يميت السر حتى كأنه ... إذا استنطقوه عن حديثك جاهله
وعى سركم في مضمر القلب والحشا ... شفيق عليكم لا تُخاف غوائله
وأكتم نفسي بعض سري تكرمًا ... إذا ما أضاع السر في الناس حامله

وقول صاحبه أيضًا:

لعمري ما استودعت سري وسرها ... سوانا حذارًا أن تشيع السرائر
ولا خاطبتها مقلتاي بناظرة ... فتعلم نجوانا العيون النواظر
ولكن جعلت اللحظ بني وبينها ... رسولًا فأدى ما تجن الضمائر

ومنه قول الآخر:

ليهنك مني أنني غير مظهر ... هواك ولو أشرفت منه على تجبي
ولو أن خلقا كاتم الحب قلبه ... لمت ولم يعلم بحبكم قلبي

وقال آخر:

لو أن امرءًا أخفى الهوى عن ضمير ... لمت ولم يعلم بذاك ضمير
ولكن سألقى الله والقلب لم يبح ... بسرك والواشون عنك كثير

وقال العباس بن الأحنف:

أيا من سروري به شقوة ... ومن صفو عيشي به أكدر
تجنيت تطلب ما أستحق ... به الهجر هيهات لا يقدر
وماذا يضرك من شهرتي ... إذا كان سرك لا يشهر
أمني يخاف انتشار الحديث ... وحظي في صونه أكثر
ولو لم يكن فيه بقيا عليك ... نظرت لنفسي كما تنظر

وأنشدني لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

ومؤتمن بالحزن في كل أمره ... وأسراره منه بحيث المقاتل
فلا سره عن ساحة الصدر نازح ... ولاهو عن سر تعداه سائل

ولغيره في مثله:

فلنقل الجبال أهون من بث ... حديث حنت عليه الضلوع
فلك الله أنني لك راع ... ما بدا كوكب وبرق لموع

وأنشدني أحمد بن عبد الله، قال: أنشدني ابن الكلبي لابن أمينة:

وأني على السر الذي هو داخل ... إذا باح أصحاب الهوى لضموم
وأني ما استودعت يا أم مالك ... على قدم من عهدنا لكتوم

وقال أبو الطيب -الضموم- الممسك وكذلك الزميت أيضًا.

وقال آخر:

وحاجة دون أخرى قد شجيت بها ... خلفتها للذي أخفيت عنوانا
أني كأني أرى من لا حياء له ... ولا أمانة وسط الناس عريانا

وأنشدني أحمد يحيي بن الحطيم:

وإن ضيع الأحرار سرًا فإنني ... كتوم لأسرار العشير أمين
يكون له عندي إذا ما ضمنته ... مكانًا بسوداء الفؤاد مكين

وقال بشار بن برد المرعث:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم ... حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا
لأخرجن من الدنيا وسرهم ... بين الجوانح لم يعلم به أحد

وأحسن والله الذي يقول:

يـــأبى لي الـــذم أخـــلاق ومكرمـــة ... منـــي وأذن عـــن الفحـــشاء صـــماء

الـنجم أقـرب مـن سري إذا اشـتملت ... منـي عـلى الـسر أضـلاع وأحـشاء

والذي قيل في ذلك كثير جدًّا يطول به الخطب، ويتسع فيه القول، وليس قصدنا في كتابنا هذا المعنى، وإنما تقدمنا بذكر ما شرحناه، ونعت ما وصفناه؛ لأنه لا بد للظريف من استعمال كل ما ذكرناه من حدود الأدب وشرائع المروة. واعلم أن مذهبنا في هذا الكتاب إلى معنى صفة الظرف وما يجب على الظريف استعماله. وذكر ما يجب عليه تركه، وما اخترعنا في كتابنا هذا علمًا من عند أنفسنا يجب لنا به الامتحان ولا يلحقنا فيه عيب من عاب إن عاب، ولا على أنه لا يطلب لفظه ولا يمتنع عند معايبهم إلا معيب، وأنشدنا أحمد بن يحيى، قال: أنشدني ابن السكيت:

رب غريـــب ناصـــح الحبيـــب ... وابـــن أب مـــتهم الغيـــب

ورب عيـــاب لـــه منظـــر ... مـــشتمل منـــه عـــلى العيـــب

ولكنا ألفناه وجمعناها من أقاويل جماعة من الظرفاء والمتظرفات، وأهل الأدب والمروات، سمعناهم ورأيناهم يتكلمون به ويستعملونه، فأحببنا أن نجمع ذلك ونجعله لهوًا لمن أراد سماعه، وعلمًا لمن أراد اتباعه، وهديًا لمن أراد رشده، ومنارًا لمن أراد قصده، وطيبًا لمن أراد شمَّه، وأدبًا لمن أراد فهمه، وكتابنا هذا روضة تتنزه فيها العقول. وعقود جوهرٍ زينتها الفصول، إذ لم نخله من أخبار طريفة وأشعار ظريفة وأشياء نمت إلينا من زي ظرفاء الناس، في الطعام والشراب والعطر واللباس، ومذهبهم فيما اجتنبوه من ذميم الأفعال واستحسنوه من جميل الشيم والأخلاق، وسأشرح ذلك وأبينه بابًا بابًا لتقف عليه إن شاء الله.

باب سنن الظرف

اعلم أن أعماد الظرف عند الظرفاء، وأهل المعرفة والأدباء: حفظ الجوار، والوفاء بالذمار، والأنفة من العار وطلب السلامة من الأوزار؛ ولن يكون الظريف ظريفًا حتى تجتمع فيه خصال أربع؛ الفصاحة والبلاغة والعفة والنزاهة.

وسألت بعض الظرفاء عن الظرف فقال: التودد إلى الإخوان، وكف الأذى عن الجيران. وقال آخر: الظرف ظلف النفس وسخاء الكف وعفة الفرج. وأخبرني أحمد ابن عبيد قال: قال الأصمعي وابن الأعرابي: لا يكون الظرف إلا في اللسان. يقال: فلان ظريف، أي: هو بليغ جيد المنطق، ومنه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا كان اللص ظريفًا لم يُقطع؛ أي: لأنه يكون له لسان فيحتج به فيدفع عن نفسه. قال: وروي عن محمد بن سيرين أنه قال: الظرف مشتق من الفطنة. وقال غيره: الظرف حسن الوجه والهيئة. وقال بعض المشيخة: الظريف الذي قد تأدب وأخذ من كل العلوم فصار وعاء لها فهو ظرف.

وقال أحمد بن عبيد: معناه أنه يعي أدبًا وعلمًا كما يعي ظرف الشيء ما يكون فيه، ولذلك معنى إذا كان اللص ظريفًا لم يُقطع؛ إذا كان واعيًا للعلم لم يسرق إلا بتأول. كما فعل الشعبي وقد دخل بيت المال فأخذ منه دراهم وإنما أراد به التأول لماله فيه من الحق. وسألت بعض متظرفات القصور عن الظرف، فقالت: من كان فصيحًا عفيفًا كان عندنا متكاملًا ظريفًا، ومن كان غنيًّا عاهرًا كان ناقصًا فاجرًا.

وقال بعض الأدباء: الظرف ظلف النفس ورقة الطبع، وصدق اللهجة وكتمان السر. وسألت بعض الظرفاء، فقال: الظرف في أربع خصال: الحياء، والكرم، والعفة، والورع. وأنشدني أبو عبد الله الواسطي لنفسه في هذا المعنى:

ليس الظريف بكامل في ظرفه ... حتى يكون عن الحرام عفيفا
فإذا تورع عن محارم ربه ... فهناك يدعوه الأنام ظريفا

ومثله لبعض المتأدبين:

إن أكن طامح اللحاظ فإني ... والذي يملك العباد عفيف
ليس طرف الظريف لنفس لكن ... كل ذي عفة فذاك ظريف

وخبرت أن عبد الملك بن مروان وَجَد على بعض عماله فقيده وحبسه في داره، فأشرفت عليه ابنة لعبد الملك، فنظر إليها، فأنشأت تقول:

أيها الرامي بالطرف ... وفي الطرف الحتوف
أن ترد وصلا فقد أمـ ... ـكنك الظبي الألوف

فأجابها الفتى فقال:

ترينـ ... ـني زاني العين ففالفرج عفيف
ليس إلا النظر الفا ... تن والشعر الظريف

فأجابته الجارية:

قد أردناك على أن ... تعتنق ظبيًا ألوفًا
فتأبيت فلا زلـ ... ـت لقيديك حليفًا

فذاع الشعر، وبلغ عبد الملك، فدعا به فزوجه إياها ودفعها إليه. واجتاز عبد الله ابن عبد الرحمن -الذي كان يعرف بالقسِ لعبادته- بـ(سلامة) المغنية التي صارت إلى يزيد بن عبد الملك، فسمعها وهي تغني، فوقف يستمع غناءها، فأدخله مولاها عليها. فوقعت في قلبه ووقع بقلبها. فقالت له يومًا وقد خلا مجلسهما: أنا والله أحبك. فقال: وأنا والله أحبك. قالت: فأنا والله أشتهي أن أضع فمي على فمك، وألصق صدري بصدرك، وأضمك إليَّ وتضمني إليك. قال: وأنا والله أشتهي ذلك. قالت: فما يمنعك من ذلك؟ فوالله إن الموضع لخال، وما بقربنا أحد. فقال: ويحك، إني سمعت الله يقول: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، فأنا أكره أن تكون خِلتي لك في الدنيا منقطعة في الآخرة، ثم وثب فانصرف.

وكان لعلي بن أبي طالب عليه السلام جارية تدخل وتخرج، وكان له مؤذن شاب، فكان إذا نظر إليها قال لها: أنا والله أحبك، فلما طال ذلك عليها أتت عليًا عليه السلام فأخبرته. فقال: لها إذا قال لك ذلك فقولي: أنا والله أحبك فمه، فأعاد عليها الفتى قوله، فقالت له: وأنا والله أحبك فمه، فقال: تصبرينَ ونصبر حتى يوفينا من يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب. فأعلمت عليًا عليه السلام فدعا به فزوجه منها ودفعها إليه.

وأنشدني أبو عبد الله الواسطي لنفسه في هذا المعنى:

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني ... منه الحياء وخوف الله والحذر
وكم خلوت بمن أهوى فيقنعني ... منه الفكاهة والتحديث والنظر
أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم ... وليس لي في حرام منهم وطر
كذلك الحب لا إتيان معصية ... لا خير في لذة من بعدها سقر

ومثل ذلك قول الآخر:

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها ... لا خير في لذة من بعدها النار

ومما استحسنه في العفة أيضًا ما أنشدنيه أحمد بن يحيى ثعلب لبعض نساء العرب:

وبتنا خلاف الحي لا نحن منهم ... ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبتنا يقينًا ساقط الطل والندى ... من الليل بردًا يمنة عطران
نذود بذكر الله عنا من الصبى ... إذا كاد قلبانا بنا يريدان
ونصدر عن العفاف وربما ... نفينا غليل النفس بالرشفان

وأنشدني أحمد بن يحيى ثعلب:

أحبك لا من ريبة كانت بيننا ... ولا نسب بيني وبينك شابك
أحبك إن خبرت فإنك فارك ... لعمري إني مولع بالفوارك
أحب فتاة إن تشاغب زوجها ... وإن لم أنل من وصلها غير ذلك

قال أبو الطيب: الفارك: المبغضة لزوجها، يقال قد فركت المرأة زوجها تفركه إذا أبغضته، وهي فارك والرجل مفروك. ومثله قول الحسين بن مطير:

أحبك يا سلمى على غير ريبة ... وما خير حب لا تعف سرائره

ومثله أيضًا قول الآخر:

أتأذنون لصب في زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يفعل السوء إن طال الجلوس به ... عف الضمير ولكن فاسق النظر

وقال محمود الوراق:

إني أحبـــك حبًّـــا لا لفاحـــشة ... والحـب لـيس بـه في الله مـن بـأس

وأنشدني بعض الأدباء قال: أنشدني أعرابي ببلاد نجد:

ويـــوم كإبهـــام الحبـــاري قطعتـــه ... بمقمعـــة والقـــوم فـــيهم تحـــرف

إذا مـــا هممنـــا صـــد زي نفوســـنا ... كـما صـد مـن بعـد التهمم يوسـف

قال أبو الطيب: كإبهام الحباري؛ يريد نهاية ما يكون من القصر، وأنشدني آخر:

مـــا الحـــب إلا قبـــل ... وغمـــز كـــف وعـــض

وكتـــب فيهـــا رقـــى ... أنفـــذ مـــن نفـــث العقـــد

مـــا الحـــب إلا هكـــذا ... إن نكـــح الحـــب فـــسد

مـــن لمـــن يكـــن ذا عفيـــة ... فـــإنما يبغـــي الولـــد

ومن ذلك قول بثينة لجميل، وقد قال لها: هل لك يا بثينة أن نحقق قول الناس فينا؟ فقالت له: مه، دع حبنا مكانه، إن الحب إذا نكح فسد.

ودخلت بثينه على عبد الملك بن مروان، فقال لها: والله يا بثينة ما أرى فيك شيئًا مما كان يقول جميل، قالت: يا أمير المؤمنين، إنه كان يرنو إلي بعينين ليستا في رأسك. قال: وكيف صادقتيه في عفته؟ قالت: كما وصف نفسه حيث يقول:

ألا والـــذي تـــسجد الحيـــاة لـــه ... مـــالي بـــها دون ثوْبهـــا خـــبر

ولا بفيهـــا ولا هممـــت بـــه ... مـــا كـــان إلا الحـــديث والنظـــر

وقيل لأعرابي: هل زنيت قط؟ قال: معاذ الله، إنما هما اثنتان، إما حرة آنف لها من فسادها، وإما أمة آنف لنفسي من فسادي إياها. وروي عن ابن سهل بن سعد

الشاعر قال: دخلت على جميل بن معمر العذري وهو عليل وإني لأرى آثار الموت على وجهه؛ فقال: يا ابن سهل أتقول أن رجلًا يلقى الله لم يسفك دمًا حرامًا، ولم يشرب خمرًا، ولم يأت بفاحشة، أترجو له الجنة؟ قلت: أي والله، فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل. قلت: بعد زيارتك بثينة وما تحدث به عنكما. فقال: والله إني لفي آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، ولا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن كنت حدثت نفسي فيها بريبة قط. قال: فما انقضى يومه حتى مات.

وقال الأصمعي: كان عمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق جالسين بفناء الكعبة، فمرت بهما امرأة من ربيعة -وقيل من آل أبي سفيان- فدعا عمر بكتف فكتب فيها:

ألما بذات الخال فاستطلعا لنا ... على العهد باق ودها أم تصرما

وقولا لها إن النوى أجنبية ... بنا وبكم قد خفت أن تتيمما

فقال له ابن أبي عتيق: ما تريد إلى امرأة مسلمة محرمة، تكتب إليها بمثل هذا؟ فقال: أترى ما سيرت في الناس من الشعر، ورب هذه البينة، ما قبل منها وما دبر، ما قولت امرأة قط ما لم تقله، ولا طالعت فرج حرام قط.

وقيل لكثير عزة: هل نلت من عزة شيئًا طول مدتك؟ فقال: لا والله، إلا أنه ربما كان يشتد بي الأمر فآخذ يدها فأضعها على جبيني فأجد لذلك راحة.

وقال أعرابي -وخلا بامرأة كان يتعشقها-: ما زال القمر يرينيها، فلما غاب أرتنيه، قيل: فما كان بينكما؟ قال: أقصى ما أحل الله، وأدنى ما حرم الله عز وجل؛ إشارة في غير باس، ودنو في غير مساس، وأنشأ يقول:

ولرب لذة ليلة قد نلتها ... وحرامها بحلالها مدفوع

قال أعرابي من فزارة: عشقت جارية من الحي فحادثتها سنين كثيرة، والله ما حدَّثت نفسي بريبة قط، سوى أن خلوت بها فرأيت بياض كفها في سواد الليل فوضعت كفي على كفها، فقالت: مه، لا تفسد ما صلح؛ فأرفض جبيني عرقًا، ولم أعد.

(واعلم) أن الظرف ليس بمستغني عنه، ولا هو مما يُخل منه ولا يُعَنَّف فيه صاحبه ولا يُفَنَّد عليه طالبه، بل هو أنبل ما استعمله العلماء، وصبا إليه الأدباء، وتزينوا به عند أودائهم، وتحلوا به عند أخلائهم، وربما تكلفه قوم ليس من أهله فظرف، وعاناه فلطف، وأنه من المطبوعين أحسن منه المتكلفَين، وللمتكلف علامات تظهر في حركاته، وتبين في لحظاته، لا يسترها بتصنعه، ولا تتغيب بتستره، وإن المطبوع على الظرف، ليشهد له القلب عند معاينته بحلاوته، وتسكن النفس عند لقائه إلى مجالسته، وتصبو إلى محادثته، وترتاح إلى مشاهدته، وهو بَيِّن في شمائله، ظاهر في خلائقه، بيِّن في منطقه، غير مستتر عند صمته، دلائله واضحة في مشيته، وزيُّه ولفظه يستدل عليه بظاهر حركة الملاحة دون اختبار باطن الحلاوة، ألا ترى أن من زيهم التقزز والنظافة والملاحة واللطافة وإظهارُ البَزة وطيب الرائحة فالنفوس إليهم تائقه والقلوب وامقة والعيون رامقة والأرواح عاشقة، وأن من زيهم الوقار والخشوع والسكونُ والخضوع والتصنع بالأخلاق الوضَيَّة والشيم السَنيَّة والمذاهب الجميلة والهمم الجليلة، ومما يستدل به على كمال أدبهم ويعرف به رجحان هممهم، كثرة استعبالهم الهوى وطول معاناتهم الجوى وهو من أحسن مذاهبهم، وأجلُّ مناقبهم، ولسنا نقول أن الهوى ليس بفرض على ذوي العقل، كما قال ذو التقصير والجهل؛ بل هو من أوكد الفرض عليهم، وأثبت الحجة للمفترض الناظر إليهم على حسن تركيب الطباع والغرائز وصفاء جواهر الهمم والنحائز إن هو عند ذه

العلوم والأحكام من أجل مذاهب الأدباء والكرام، وقال محمود الوراق في ذلك؛ إذا كان الحب عنده كذلك:

ألم تعلم فداك أبي وأمي ... بأن الحب من شيم الكرام

وليس يخلو أديب من هوى ولا يعرى من ضنى؛ لأن الهوى كما وصفته العلماء وكما قال فيه الحكماء: أنه هو أول باب تفتق به الأذهان وينفسح به الجنان، وله سورة في القلب يحيا بها اللب، وقد يشجع الجبان ويسخي البخيل ويطلق لسان العي ويقوى حزم العاجز ليأنس به الجليس ويمتنع به الأنيس ويذل له العزيز ويخضع له المتجبر ويبرز له كل محتجب وينقاد له كل ممتنع، وهو أمير مطاع وقائد متبع وليس بأديب عندهم من خرج من حدِّ الهوى، وقد قال الأحوص بن محمد الأنصاري:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فكن حجرًا من يابس الصخر جلمدا

هل العيش إلا ما تلذ وتشتهي ... وإن لام فيه ذو الشنان وفنَّدا

واجتاز رجل بمجنون بني عامر وهو يخوض سور الحوض فقال له: ما بك يا فتى ولم يعرفه؟ فانشأ يقول:

بي اليأس أو داء الهيام أصابني ... فإيَّاك عني لا يكن بك ما بيا

قال أبو الطيب: الهيام داء يأخذ الإبل وتشرب الماء ولا تروى. ويقال: للإبل التي يصيبها ذلك الهيم. قال الله جل ثناؤه: ﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ فعرفه فقال: أعاشق أنت؟ قال: نعم. وأنشأ يقول:

إذ أنت لم تعشق فتصبح هائما ... ولم تك معشوقا فأنت حمار

وقال الحب أول ما يكون لجاجة ... تأتي به وتسوقه الاقدار

وروّينا عن الهزنانداني عن هشام، عن ابن سيرين قال: كانوا لا يرون بالعشق بأسًا في غير ريبة. وقيل لبعض البصريين أن ابنك قد عشق فقال: وما بأس به إنه إذا عشق نظف وظرف ولطف. وقيل: لبعض العرب متى يكون الفتى بليغًا؟ قال: إذا وصف هوى حيًّا. وأنشدني بعض الأدباء:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ... وما خير فيمن لا يحب ويعشق

وقال آخر:

وما تلفت إلا من العشق مهجتي ... وهل طاب عيش لامرئ غير عاشق

وقال آخر:

وما خير في الدنيا إذا أنت لم تزر ... حبيبًا ولم يطرب إليك حبيب

وقال آخر:

وما سرني أني خلي من الهوى ... ولا أن لي ما بين شرق إلى غرب

واعلم أن أول علامات الهوى على ذي الأدب، تحول الجسم وطول السقم واصفرار اللون وقلة النوم وخشوع النظر وإدمان الفكر وسرعة الدموع وإظهار الخشوع وكثرة الأنين وإعلان الحنين، وانسكاب العبرات وتتابع الزفرات، ولن يخفي المحب وإن تستر ولا ينكتم هواه وإن تصبر ولن يغني ادعاء أنه قد قارن العشق والهوى؛ لأن علامات الهوى نائرة وآيات الادعاء ظاهرة. وقد قال الأحوص الأنصاري:

ما عالج الناس مثل الحب من سقم ... ولا يرى مثله عظمًا ولا جسدا

ما يلبث الحب أن تبدو شواهده ... من المحب وإن لم يبده أبدا

وقال آخر:

ما يعرف الحزن إلا كل من عشقا ... وليس من قال أني عاشق صدقا
للعاشقين نحول يعرفون به ... من طول ما حالفوا الأحزان والأرقا

وحُدثت عن الزبير بن بكار قال: رأيت رجلًا بناحية الثغر عليه أثر ذلة وخضوع واستكانة وخشوع، كان يكثر التنفس ويخفي السكوت ويبدي الأنين وحركات المحب لا تخفي في شمائله ولا يسترها بتصاونه، فسألته في بعض أيامه وقد خلوت به عن حاله فكان جوابه وقد تحدرت الدموع من عينيه:

أنا في أمري رشاد ... بين غزو وجهاد
بدني يغزو عدوي ... والهوى يغزو فؤادي

وركبت سكينة ابنة الحسين بن علي ذات ليلة في جواريها فمرت بعروة بن أذينة الليثي وهو في فناء قصر ابن عيينة فقالت لجواريها: من الشيخ؟ فقالوا: عروة؛ فعدلت إليه فقالت: يا أبا عامر، أنت تزعم أنك لم تعشق قط، وأنت تقول:

قالت وأبثتها وجدي فبحت به ... قد كنت عندي تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولي فقلت لها ... غطي هواك وما ألقى على بصري

كل من ترى حولي من جوار أحرار أن كان خرج هذا الكلام من قلب سليم. فهذان قد كتما هواهما فنمت شواهد نجواهما؛ لأن من اغتمس في بحر الهوى نمت عليه شواهد الضنى. فأما أهل الدعاوي الباطلة الذين ليست أجسامهم بناحلة ولا ألوانهم بحائلة ولا عقولهم ببذاهله، فهم عند ذوي الفراسة يكذبون وعند ذوي الظرف لصحتهم يوبخون. وقد روي أن العباس بن الأحنف قال: بينا أنا بالطواف إذا بثلاث جوار أتراب فلما أبصرنني قلن: هذا العباس، ودنت إلى إحداهن فقالت: يا عباس أنت القائل:

ماذا لقيت من الهوى وعذابه ... طلعت على بلية من بابه

قلت: نعم. قالت: كذبت يا ابن الفاعلة لو كنت كذلك كنت كأنا ثم كشفت عن أشاجع معرأة من اللحم وأنشأت تقول:

ولما شكوت الحب قالت كذبتني ... فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا
فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشا ... وتخرس حتى لا تجيب المناديا

ودخل إبراهيم بن المهدي على أمير المؤمنين، وكان إبراهيم أنجل البطن كثير اللحم والشحم، فقال له المأمون: بالله يا عم عشقت قط؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وأنا الساعة عاشق. قال: وأنت على هذه الجثة والشحم الكثير ثم أنشأ المأمون يقول:

وجه الذي يعشق معروف ... لأنه أصفر منحوف
ليس كمن أمسى له جثة ... كأنه للذبح معلوف

فأجابه إبراهيم بن المهدي:

وقائل لست بالمحب ولو ... كنت محبًا لذبت من زمن
فقلت قلبي مكاتم بدني ... حبي فالحب فيه مختزن
أحبَّ قلبي وما دري بدني ... ولو درى ما أقام في السمن

هذان أيضًا قد ادعيا المحبة ففضحهما شاهد النظر ولم يجز ادعاؤهما على ذي المعرفة والبصر. وقول إبراهيم: أحب قلبي وما دري بدني، محال لا يعلق القلب فيسلم الجسم؛ ولكنه لاستحيائه قد احتج بحجة ضعيفة. وأنشدني بعض المشيخة في مثل ذلك:

وقائلة ما بال جسمك سالمًا ... وعهدي بأجسام المحبين تسقم
فقلت لها قلبي لجسمي لم يبح ... بحبي فجسمي بالهوى ليس يعلم

فالعرب تمدح بالضمر وتذم بالسمن، وتنسب أهل النحول إلى الأدب والمعرفة وأهل السمن إلى الفدامة وقلة الفهم، وللفلاسفة والأطباء في ذلك قول يثبت ما ادعت العرب وزعموا أن من غلب عليه البلغم عظم جسمه وكثر شحمه ولحمه وقل فهمه وطال ثباته وانعقد لسانه؛ لغلبة البلغم على قلبه واحتواء الرطوبة على لبه، ومن كان أغلب مزاجاته المرة خفَّ جسمه وقل لحمه وذاب شحمه وحسن ذهنه وصح فهمه؛ لأن النحول علامة المتفرسين ودلالة المتوسمين لا يكاد أن تخطئ فيه الفراسة ولا تكذب فيه العيافة؛ لما أخبرتك من غلبة أحد المزاجين على صاحبه وابتناء قراره في مركبه وربما أنجب السمن وخاب الهزال ولا يكون ذلك إلا في الفرد الشاذ من الرجال.

ومن أمثال العرب في ذلك: البطنة تذهب الفطنة. وروي أن جميل بن معمر العذري صحبه رجل من عذرة وكان بطينًا أكولًا فجعل يشكو إليه هوى ابنة عم له فأنشأ جميل يقول:

وقد رابني من جعفر أن جعفرا ... ملح على قرص ويشكو هوى جمل

فلو كنت عذري الهوى لم تكن كذا ... بطينًا وأنساك الهوى كثرة الأكل

ومن عشق عندهم فلم ينحل جسمه ولم يطل سقمه ويتبين الخشوع في حركته والذل في نغمته، نسبوه إلى فساد الطبع ونقصان اللب وبُعْد الفهم وموت القلب، ومن ادعى المحبة فلم ينحل ولم يسهر ولم يذل ولم يخضع نفسه على الأمور المتعبة والشدائد الفظيعة ويركب فيها المراكب الوعرة ويتقدم على الأشياء المهولة والأهوال المخوفة التي يلاقي فيها الموت ويعاين فيها الفوت ويباشر فيها الهلكة ويغرر فيها بالمهجة ويصبر منها على حتفه ويخاطر بنفسه ويرد الموارد التي يلاقي

فيها الموت ويشرف منها على مهول الأمر الذي فيه تلفه وحينه وحتى يعصي في هواه الأقارب ويعالج فيه العجائب؛ فيكون كما قال العرجي:

كم قد عصيت إليك من متنصح ... داني القرابة أو وعيد أعادي
وتنوفة أرمي بنفسي عرضها ... شوقًا إليك بلا هداية هادي

وكما قال سويد بن أبي كاهل:

كم جشمنا دون سلمى مهمهًا ... نازح الغور إذا الآل لمع
وكذاك الشوق ما أشجعه ... يركب الهول ويعصي من وزع

فليس بعاشق عندهم ولا يثبت له اسم الهوى ولا يلحق بالظرفاء ولا يعد في الأدباء؛ لأن الهوى عندهم في النحول والذهول والضنى والعناء والأرق والقلق والسهر والفكر والذل والخضوع والانكسار والخشوع وإدمان البكاء وقلة العزاء وكثرة الأنين وطول الحنين، وليس بعاشق من خرج عن هذه الصفات وانتقل من هذه الحالات أو وسم بغير هذه العلامات وعرف بغير هذه الدلالات. أنشدني بعض الأدباء:

علامة من كان الهوى في فؤاده ... إذا ما لقي أحبابه يتحيرا
ويصفر لون الوجه بعد احمراره ... فإن حركوه للكلام تشورا

أنشدني أبو الحسن بن الرومي:

أرى مسماء وبي عطش شديد ... ولكن لا سبيل إلى الورود
أما يكفيك أنك تملكيني ... وأن الخلق كلهم عبيدي
وأنك لو قطعت يدي ورجلي ... لقلت من الهوى أحسنت زيدي

وحُدِّثت عن ابن مخارق عن أبيه قال: كنا عند المأمون يومًا فقام فدخل لي حرمه وخرج عيناه تذرفان، فقال لي: يا مخارق تغن لي بهذين البيتين:

سلام على من لم يطق عند بينه ... سلامًا فأومي بالبنان المخضب

فما استطعت إلا بالبكاء جوابه ... وذلك جهد المستهام المعذب

فحفظتهما وتغنيت بهما؛ فجعل يبكي وينتحب في بكائه ويزفر ثم قال لنا: أتدرون ما قصتي؟ قلت أمير المؤمنين أعلم وإن شاء أعلمنا. قال: إني دخلت إلى بعض المقاصير فرأيت جارية لي كنت أجد بها وجدًا شديدًا وهي للموت فسلمت عليها فلم تطق ردَّ السلام فأشارت بأصبعها فغلبتني العبرة وأرهقتني الزفرة فخرجت من عندها فحضرني هذان البيتان من باب قصرها إلى باب مجلسي، ثم أمر برفع الشراب فما رأيت يومًا أكدر منه، وأنشدت للمعتصم في بعض جواريه:

أيا منقذ الغرقى أجرني من التي ... بها نلت روحي سقامًا وعلت

لقد بخلت حتى لو أني سألتها ... قذى العين من سافي التراب لضنت

وأنشدت للمتوكل في جارية له:

أمازعها فتغضب ثم ترضي ... وكل فعالها حسن جميل

فإن تغضب فأحسن ذات ذل ... وإن ترضي فليس لها عديل

حدثني أبو العباس بن الفضل الربعي قال: حدثني علي بن الجهم قال: حُمَّ المتوكل يومًا؛ وكان ذلك بعقب شرٍّ وقع بينه وبين قبيحة فرماها بمخدة فغضبت واحتجبت فحمَّ بعقب ذلك، ودخلنا عليه وإذا الفتح قائم في يده قارورة فيها الماء ويحيى بن ماسويه ينظر إليها فقال: ليس أرى إلا ما أحب. فقلت: يا أمير المؤمنين، أنشدك أبياتًا. فقال لي: أنشد فأنشدته:

تنكر حال علتي الطبيب ... فقال أرى بجسمك ما يريب

جسست العرق منك فدل عندي ... على داء له شأن عجيب
فما هذا الذي بك هات قُلي ... فكان جوابه مني النحيب
فجسمي بالحبيب بلى سقامًا ... وقلبي يا طبيب هو الكئيب
فحرك رأسك ودنا إلى ... وقال الحب ليس له طبيب
فأعجبني تظرفه على ... فقلت بلى إذا رضي الحبيب
فقال هو الشفاء فلا تُوان ... فقلت أجل ولكن لا تحيب
ألا هل مسعد يبكي لشجوى ... فإني هاهنا أبدًا غريب

فضحك ودعا بالشراب وشرب وشربنا معه ووجه إلى قبيحة؛ فوقع الصلح بينهما وخرجت عندها رقعة بخط فضل الشاعرة:

لأصبرن على ما بي من المضض ... حتى أموت ولا يشعر بي الناس
ولا يقال شكا من كان يعشقه ... إن الشكاة لمن يهوى هو الياس
ولا أبوح بسر كنت أكتمه ... عند الجليس إذا ما دارت الكاس

وأما من عشق من الشعراء فما يحصرهم عدد ولا يحصيهم أحد، وقد عشق أكثر العرب بل كلهم قد عشق؛ فمن المذكورين منهم المشتهرين بالصبوة والغزل فقيس مجنون بني عامر عاشق ليلى، وقيس بن ذرح عشق لبنى، وتوبة بن الحمير عشق ليلى الأخيلية، وكثير عشق عزة، وجميل بن معمر عشق بثينة، والمؤمل عشق الذلفاء، ومرقش عشق أسماء، ومرقش الأصغر عشق فاطمة بنت المنذر، وعروة بن حزام عشق عفراء، وعمرو بن عجلان عشق هند، وعلي بن أديم عشق منهلة، والمهذب عشق لذة، وذو الرمة عشق مية، وقابوس عشق منية، والمخبل السعدي عشق الميلاء، وحاتم طيء عشق ماوية، ووضاح اليمن عشق أم البنين، والغمر بن ضرار عشق جمل، والنمر بن تولب عشق حمزة، وبدر عشق نعم، وشبيل عشق فالون، وبشر

عشق هند، وعمرو عشق دعد، وعمرو بن أبي ربيعة عشق الثريا، والأحوص عشق سلامة، وأسعد بن عمرو عشق ليلى بنت صيفي، ونصيب عشق زينب، وسحيم عبد بني الحسحاس عشق عميرة، وعبد الله بن قيس عشق كثيرة، وأبو العتاهية عشق عتبة، والعباس بن الأحنف عشق فوز، وأبو الشيص عشق أمامة.

فهؤلاء قليل من كثير ممن عشق؛ وإنما اقتصرنا على ذكر بعضهم دون بعض ليقل به الخطاب ويحسن به الكتاب، ولكل واحد منهم سبب في حبه وحديث في عشقه، يطول شرحه ويكثر وصفه ونحن مفردون لأهل العشق كتابًا نذكر فيها أخبار المتيمين وملح المتعشقين وأشعار المتغزلين، مع جملة من صفات الهوى في كتاب «المقتفى» إن شاء الله تعالى.

وقد شهر أيضًا بالصبوة والغزل جماعة من شعراء العرب منهم: أبو كثير الهذلي وأبو صخر الهذلي، وأبو دهبل الجمحي، وريسان العذري، والصمة بن عبد الله القشيري، وابن أذنية، وابن الدمينة، وابن الطثرية، وابن ميادة، والحسين بن مطير إلى آخرين لا يحصيهم العدد ولا يبلغهم الأمد، وقد ضرب في عروة بعشقه المثل؛ لأنه كان أطولهم صبوة وأكثرهم في العشق كثرة.

أنشدني أحمد بن يحيى لأبي وجزة السعدي:

وفي عروة العذري أن مت أسوة ... وعمرو بن عجلان الذي فتنت هند

وفي مثل ماماتا به غير أنني ... إلى أجل لم يأتني وقته بعد

هل الحب إلا عبرة بعد زفرة ... وحر على الأحشاء ليس له برد

وفيض دموع العين بالليل كلما ... بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

وقال كثير:

وأصبحت مما أحدث الدهر خاشعًا ... وكنت لريب الدهر لا أتخشع
وعروة لم يلق الذي قد لقيته ... بعفراء والنهدي ما أتفجع

وقال جرير:

هل أنت شاقية قلبًا يهيم بكم ... لم يلق عروة من عفراء ما وجدا

وقال أيضًا:

بالعنبرية والنحيت أوانس ... قدن الهوى بتخلّب عذام
هل لا نهيتك إذ قلتن مرقشًا ... أما صنعن بعروة بن حذام

وقال الأحوص الأنصاري:

لا شك أن الذي بي سوف يقتلني ... إن كان أهلك حبه قبله أحدا
أحببتها فوتغت الناس كلهم ... يا رب لا تشقني من حبها أبدا
لو قاس عروة والنهدي وجدهما ... لكان وجدي بسعدي فوق ما وجدا

وقال أيضًا:

إذا جئت قالوا قد أتى وتهامسوا ... كأن لم يجد فيما مضى أحد وجدى
فعروة سنّ الحب قبلي أن شقى ... بعفراء والنهدي مات على هند

وقال جميل بن معمر:

وما وجدت وجدي بها أم واحد ... ولا وجد النهدي وجدي على هند
ولا وجد العذرى عروة إذ قضى ... كوجدي ولا من كان قبلي ولا بعدي
على أن من قد مات صادف راحة ... وما لفؤادي من رواح ولا رشد

وقال مروان بن أبي حفصة:

أردين عروة والمرقش قبله ... وأخا بني نهد تركن قتيلا
ولقد تركن أبي ذؤيب هائما ... ولقد قتلن كثيرًا وجميلا
وتركن لابن أبي ربيعة منطقًا ... فيهن أصبح سائرًا محمولا

وأنشدني عمرو بن قنان لنفسه:

أن الأولى ماتوا على دين الهوى ... وجدوا المنية منهلًا معسولا
قيس وعمرو والمرقش قبلهم ... كانوا لتنزيل الهوى تأويلا
ندبوا الطلول لأهلها لا أنهم ... عشقوا مغاني أربع وطولا

ولبعض المتأدبين:

يا عذولي قد هويت فكفا ... إنني بالهوى المميت رضيت
مات قيس وعروة وجميل ... وأراني بموتهم سأموت

وقال جميل بن معمر:

قد مات قبلي أخو نهد وصاحبه ... مرقش واشتفى من عروة الكمد
وكلهم كان في عشق منيته ... وقد وجدت بها فوق الذي وجدوا
إن لم تنلني بمعروف تجود به ... أو يدفع الله عني الواحد الصمد

وقد أحسنت والله امرأة من خثعم إذ تقول:

فأقسم أني قد وجدت بجحوش ... كما وجدت عفراء بابن حزام
فما أنا إلا مثلها غير أنني ... معلقة نفسي ليوم حمام

وأحسن الذي يقول:

عجبت لعروة العذرى أضحى ... أحاديثًا لقوم بعد قوم

وعروة مات موتًا مستريحًا ... وكيف بميت في كل يوم

وبلغنا أن منهم من عشق صورة في حمام وخيالًا في منام وكفًّا في حائط ومثالًا في ثوب، والعشق ألوان وأنواع وضروب وفنون وأمره عجيب.

وقال بعض الشعراء:

أبيت كأني للكواكب عاشق ... فأكثر همي أن تزول الكواكب

عجبت لما يلقى من العشق أهله ... وفيما يلاقي العاشقون عجائب

وبلغ العشق من عروة بن حزام أن أفرده ببلائه وعذبه ببدائه وآنسه بانفراده وشرد عن بلاده.

وحكى عن ابن أبي هتيف قال: بينا أنا أسير في أرض بني عذرة إذا أنا ببيت حرير فدنوت منه فإذا عجوز تُمرض شابًا وقد نهكته العلة وبانت عليه الذلة، فسألتها عن خبره فقالت: هذا عروة بن حزام. فدنوت منه فسمعته يقول:

من كان من أمهاتي باكيًا لغد ... فاليوم أني أراني اليوم مقبوضا

تسمعيه فإني غير سامعه ... إذا علوت رقاب القوم معروضا

فقلت: أنت عروة بن حزام. قال: نعم، أنا الذي أقول:

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجدان هما شفياني.

فقالا نعم تشفي من الداء كله ... وقاما مع العود يبتدران

فما تركا من سلوة يعلمانها ... ولا شربة إلا بها سقياني

فقالا شفاك الله والله ما لنا ... بما حملت منك الضلوع يدان
فلهفي على عفراء لهفًا كأنه ... على النحو والأحشاء حد سنان
فعفراء أحظى الناس عندي مودة ... وعفراء عني المعرض المتواني

ثم خفق خفقة فتوهمت أنها غشية فتنحيت عنه ودنت العجوز منه، فما برحت حتى سمعت الصيحة فإذا هو قد فارق الدنيا.

وبلغ العشق أيضًا من مجنون بني عامر أن أخرجه إلى الوسواس والهيمان وذهاب العقل وكثرة الهذيان وهبوط الأودية وصعود الجبال والوطء على العوسج وحرارة الرمال وتمزيق الثياب واللعب بالتراب والرمي بالأحجار والتفرد بالصحاري والاستيحاش من الناس والاستئناس بالوحش، حتى كان لا يعقل عقلًا فإذا ذُكرت ليلى ثاب إليه عقله وأفاق من غشيته وتجلت عنه غمرته، وحدثهم عنها أصح الرجال عقلًا وأخلصهم ذهنًا لا ينكرون من حديثه شيئًا، فإذا قطع ذكرها رجع إلى وسواسه وهذيانه وتماديه في ذهاب عقله.

وقد حُكي عنه في أول ابتداء وسواسه أنه قيل لأبيه: لو أخرجت قيسًا أيام الموسم وأمرته بأن يتعلق بأستار الكعبة، ويقول: اللهم أرحني من حب ليلى لعل الله كان يريحه من ذلك، ففعل فلما طاف بالبيت أمره فتعلق بأستار الكعبة، وقال قل: اللهم أرحني من حب ليلى فقال: اللهم زدني حبًا إلى حبها وأرني وجهها في خير وعافيه؛ فضربه أبوه فأنشأ يقول:

ذكرتك والحجيج له ضجيج ... بمكة والقلوب لها وجيب
فقلت ونحن في بلد حرام ... به لله أخلصت القلوب
أتوب إليك يا رحمن مما ... عملت فقد تظاهرت الذنوب
وأما من هوى ليلى وتركي ... زيارتها فإني لا أتوب

وكيف وعندها قلبي رهين ... أتوب إليك منها أو أنيب

وقال أيضًا:

دعا المحرومون الله يستغفرونه ... بمكة شعثًا كي تمحى ذنوبها
وقلت لرب الناس أول سألتي ... لنفسي ليلى ثم أنت حسيبها
فإن أعط ليلى في حياتي يتب ... إلى الله عبد توبة لا أتوبها

وقال أيضًا:

فلو أن ما بي بالحصى فلق الحصى ... وبالريح لم يسمع لهن هبوب
ولو أنني أستغفر الله كلما ... ذكرتك لم يكتب علي ذنوب

وبات في بعض ليالي حجه تحت شجرة فانتبه بنوح حمامة فأنشأ يقول:

لقد هتفت في جنح ليل حمامة ... على فنن تدعو وإني لنائم
فقلت اعتذارًا عند ذاك وإنني ... لقلبي فيما قد رأيت للائم
أأزعم أني عاشق ذو صبابة ... بليلى ولا أبكي ويبكي الحمائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقًا ... لما سبقتني بالبكاء الحمائم

وسمع هاتفًا من الليل وهو ينادي يا ليلى؛ فخر مغشيًا عليه، ثم أفاق وهو يقول:

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى ... فهيج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى أسخنَ الله عينه ... وليلى بأرض عنه نازحة قفر
عرضت على قلبي العزاء فقال لي ... من الآن فاجزع لا أعزك من صبر
إذا بان من تهوى وأسلمك النوى ... ففرقة من تهوى أحرُّ من الجمر

وقال أيضًا:

فلبيك من داع دعا ولو أنه ... صدى بين أحجار لظل يجيبها

وقد أحسن إذ حكم على صدى في رمسه بإجابة لدعوتها والمبادرة إلى تلبيتها، وهكذا فلتكن غلبة العشق وصدق الهوى، ومثل ذلك قوله أيضًا:

لمست ثيابي إن قدرت ثيابها ... ولم ينهني عن مسهن حرامها

ولو شهدتني حين تحضر ميتتي ... جلا سكرات الموت عني كلامها

ومثل ذلك قول الآخر:

ولو كلمتنا بين زمزم والصفا ... وبين حطيم البيت أضبى كلامها

ولو مكثت بعد التطوع ساعة ... بمكتبة ولاها الصلاة أمامها

ولو نطقت والموت يجري ظلامه ... لجلي ظلام الموت عني ابتسامها

ومثله قول جميل بن معمر:

حلفت يمينًا يا بثينة صادقًا ... فإن كنت فيها كاذبًا لعميت

حلفت لها بالبدن تدمي نحورها ... لقد شقيت نفسي بكم وعنيت

فلو أن جلدًا غير جلدك مسني ... وباشرني دون الشعاز شريت

ولو أن داع منك يدعو جنازتي ... وكنت على أيدي الرجال حييت

ومثله قول الأعشى:

عهدي بها في الحي قد سربلت ... صفراء مثل الهرة الضامر

لو أسندت ميتًا إلى نحرها ... عاش ولم ينقل إلى قابر

حتى يقول الناس مما رأوا ... يا عجبًا للميت الناشر

قد حجم الثدي على نحرها ... في مشرق ذي بهجة زاهر

ومثله قول المجنون أيضًا:

ولو كنت أعمى أخبط الأرض بالعصا ... أصم فنادتني أجبت المناديا

وأشهد عند الله أني أحبها ... فهذا لها عندي فما عندها ليا

قال وسرق هذا المعنى جميل بن عبد الله بن معمر فقال:

ألا ليتني أعمى أصم تقودني ... بثينة لا يخفى علي كلامها

فهؤلاء قد زعموا أن كلام النساء يجلو العمى ويسمع الصم ويحيي الميت ويدفع الموات وينشر القبور من قبل أوان النشور.

وقد قال بعض الأعراب: إن من كلام النساء ما يقوم مقام الماء فيروي من الظماء. وقال آخر: حلاوة نغم النساء في الآذان ألذ من موقع الماء العذب من العطشان.

وقال القطامي في مثل ذلك:

وفي الجدور غمامات برقن لنا ... حتى تصيبنا من كل مصطاد

قتلننا بحديث ليس يعلمه ... من يتقين ولا مكروهه بادي

وهن ينبذن من قول ينصبن به ... مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

وعمر بن أبي ربيعة يقول في سكينة بنة الحسين بن علي رضي الله عنه عنهما:

أسكين ما منى الفرات ورده ... منى على ظمأ وحب شراب

بأحب منك وأن نأيت وقل ما ... ترعى النساء أمانة الغياب

ولبعض المتأدبين في مثله:

والله ما شربة من ماء غادية ... إذا ظمئت وكرب الموت يغشاني

ألـذ مـن شربـة مـن فيـك أسـمعها تلـك الـشفاء لقلـب الهـائم العـاني

وروى أن عمر بن أبي ربيعة قال: أتتني امرأتان في أيام غزلي فجعلت أحداهما تسر إلى سرًّا والأخرى تعضني فما شعرت بعضة هذه من لذة سرار هذه.

ودخل كُثير على عبد الملك بن مروان فقال: يا كثير، حدِّثني ببعض أخبار جميل. فقال: يا أمير المؤمنين، لقيت جميلًا ذات يوم فقال: هل لك في المسير معي نحو بثينة قلت: نعم، فسايرته حتى دنا من موضعها فقال: تصير إليها فتعلمها بمكاني فمضيت فأعلمتها فأقبلت في نسوة من الحي فلما رأينه انصرفن عنها، وتنحيت عنهما فلم يزالا من أول الليل إلى أن رهقهما الصبح قائمين في أقدامهما فلما عزما على الافتراق قالت: ادن منى يا جميل فدنا منها فأسرت إليه سرًّا؛ فخر مغشيًّا عليه فما أيقظه إلا حر الشمس، فأفاق وأنشأ يقول:

فـما مـاء مـزمن مـن جبـال منيفـة ولا مـا أكنـت في معادنهـا النحـل
بأشهى من القول الـذي قلـت بعـد مـا تمكـن في حيـزوم نـاقتي الرحـل

وقال جرير أيضًا:

ولقـد رمينـك يـوم رحـن بـاعين يقـتلن مـن خلـل الـستور سـواجي
وبمنطـق شـغف الفـؤاد كأنـه عـسل يجـدن بـه بغـير مـزاج

وقال الفرزدق:

إذا هـن سـاقطنْ الحـديث كأنـه جنـى النحـل أو أبكـار كـرم تقطـف
تـراهن مـن فـرط الحيـاء كأنهـا مـراض سـلال أو هـوى لـك نـزف

وليس يمكن أن يكون ذلك عندهم كذلك.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه شتى بأحاديث صحت عن الثقات ونقلت عن الرواة، أن حبك للشيء يعمي ويصم.

وليس بعجب ما قاله المجنون وأشباهه من غلبة العشق عليهم، وقد قال غيره أعظم مما قاله وأقطع وأجل، ولقد رأينا وسمعنا وخبرنا أن منهم من قتل نفسه غرقًا وذبحًا وخنقًا؛ كل ذلك أسفًا وحسرة وتلهفًا.

فمن ذلك ما حكي عن شيخ حضر مجلس العتبي فأخبرهم أنه حضر مجلسًا فيه قينة وفتى، وكان الفتى يهوي القينة وكانت القينة تهوى ابنة الشيخ، وابنة الشيخ تهوى الفتى فغنت القينة:

علامـــــة ذل الهـــــوى ... عـــلى العاشـــقين البكـــا
ولا ســـــيما عاشـــــق ... إذا لم يجـــــد مـــــشتكى

فقال لها الفتى: أحسنت والله يا ستي، أتأذنين لي أن أموت؟ قالت: مت راشدًا فوضع رأسه على الوسادة وغمَّض عينيه فحركناه فوجدناه ميتًا، قال الشيخ: فخرجنا متعجبين من ذلك وصرت إلى منزلي فأعلمتهم ما كان من قصة الفتى، ونظرت إلى ابنتي وقد حاضرت، فدخلت مجلسًا لي فدخلت وراءها فإذا هي متوسدة على مثال ما كان عليه الفتى، فحركتها فإذا هي ميتة؛ فغدونا بجنازتها وغدوا الفتى فإذا بجنازة ثالثة فسألنا عنها فإذا هي جنازة القينة وبلغها موت ابنتي فصنعت مثل ذلك فماتت فدفنا ثلاثة بموت واحد في موضع واحد، وهذا من عجيب ما سمع به في هذا الأمر.

ومن ذلك ما أخبرني به أبو العيناء قال: حدثني عمرو بن بحر الجاحظ قال: ذكرت لأمير المؤمنين المتوكل لتأديب ولده فلما نظر إلي استبشع منظري وأمر لي

بعشرة آلاف درهم وصرفني؛ فخرجت فلقيت محمد بن إبراهيم وهو يريد الانحدار إلى مدينة السلام فعرض علي الانحدار معه وقربت حراقته ودعا بطعامه وشرابه ونصب ستارته وأمر بالغناء فاندفعت عوادة له تغني:

كل يوم قطيعة وعتاب ... ينقضني دهرنا ونحن غضاب
ليت شعري أنا خصصت بهذا ... دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

ثم سكتت وأمر طنبورية فغنت:

وارحمتي للعاشقينا ... ما أن رأى لهم معينا
كم يهجرون ويظلمو ... ن ويقطعون فيصبرونا
وتراهم مما بهم ... بين البرية خاشعينا
يتجلدون ويظهرو ... ن تجلدًا للشامتينا

قالت له العوادة: فيصنعون ماذا؟ قالت: يصنعون هكذا وضربت بيدها على الستارة فهتكتها وبرزت كلها فلقة قمر فزجت بنفسها إلى الماء، قال: وعلى رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال وبيده مُدية فلما رآها وما صنعت ألقاها من يده وأتى إلى حيث رمت بنفسها فنظر إليها وهي تمور بين الماء فأنشأ يقول:

أنت التي غرقتني ... بعد القضا لو تعلمينا

وزج بنفسه في أثرها فأدار الملاح الحراقة فإذا بهما معتنقين ثم غاصا ولم يريا؛ فهال ذلك محمدًا واستفظعه وقال للجاحظ: يا عمرو، لتحدثني بحديث يسكن عني فعل هذين وإلا ألحقتك بهما. قال الجاحظ: فحضرني خبر سليمان بن عبد الملك وقد قعد للمظالم وعرضت عليه القصص فمرت به قصة فيها أن رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه أن يخرج إلى فلانة يعني جارية من جواريه حتى تغنيني ثلاثة أصوات فعل فاغتاظ من ذلك سليمان وأمر من يخرج إليه فيأتيه برأسه، ثم أتبع الرسول برسول

آخر فأمر أن يدخل الرجل إليه فأدخل فلما مثل الرجل بين يديه قال له: ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: الثقة بحلمك والاتكال على عفوك؛ فأمره بالقعود حتى لم يبق أحد من بني أمية، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها ثم قال له: اختر. قال له: قل لها تغني بقول قيس بن الملوح:

تعلق روحي روحها قبل خلقها ... ومن بعد ما كنا نطافًا وفي المهد
فعائش كما عشنا فأصبح ناميًا ... وليس وإن متنا بمنقضب العهد
ولكنه باقٍ على كل حالة ... وسائرنا في ظلمة القبر واللحد
يكاد فضيض الماء يخدش جلدها ... إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلد
وإني لمشتاق إلى ريح حبيبها ... كما اشتاق إدريس إلى جنة الخلد

فغنته فقال سليمان: قل. قال: تأمر لي برطل، فأمر له برطل فشربه، ثم قال: تغني بقول جميل:

علقت الهوى منها وليدًا فلم تزل ... إلى يوم ينمي حبها ويزيد
وأفنيت عمري بانتظاري نوالها ... وأبلت بذاك الدهر وهو جديد
فلا أنا مردود بما جئت طالبًا ... ولا حبها فيما يبيد يبيد
إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي ... من الحب قالت ثابت ويزيد

ثم قال: تغني بقول قيس بن ذريح:

لقد كنت حسب النفس لو دام ودُّها ... ولكننا الدنيا متاع غرور
وكنا جميعًا قبل أن يظهر النوى ... بأحسن حالي غبطة ومرور
فما برح الواشون حتى بدت لنا ... بطون الهوى مقلوبة لظهور

فتغنت فقال له: قل. قال: تأمر لي برطل فما استنمه حتى وثب إلى أعلى قبة سليمان ثم زجَّ بنفسه على دماغه؛ فمات فقال سليمان: إنا لله وإنا إليه راجعون أتراه الجاهل ظن أنني أخرج إليه بجاريتي فاردها إلى ملكي، خذوا بيدها فانطلقوا بها إلى أهله إن كان له أهل وإلا فبيعوها وتصدقوا بها عنه، فلما انطلقوا بها نظرت إلى حفرة في دار سليمان قد أعدت للمطر فجذبت نفسها وأنشأت تقول:

من مات عشقًا فليمت هكذا ... لا خير في العشق بلا موت

وزجَّت بنفسها في الحفرة على دماغها؛ فماتت فسرَّى عن محمد وأحسن صلة الجاحظ.

باب من مات من شدة الفقد وتضعضعت أعضاؤه من شدة الوجد

حُكي لنا عن إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدي عن هشام بن حسان قال: حدثنا رجل من بني تميم، قال: خرجت في طلب ناقة لي فوردت على ماء من مياه طيئ فإذا بعسكرين؛ أحدهما قريب من الآخر، وإذا في أحد العسكرين شاب مدنف قد نهكته العلة، فهو كالشن البالي فدنوت لأعرف خبره؛ فسمعته وهو يقول:

إلا مـــا للمليحـــة لا تعـــود ... أســـخط بالمليحـــة أم صـــدود

مرضـــت فعـــادني أهـــلي جميعًـــا ... فـــما لـــك لا تـــرى فـــيمن يعـــود

فقـــدتك بيـــنهم فتلفـــت شـــوقًا ... وفقـــد الألـــف يـــا ســـكني شـــديد

فلـــو كنـــت المـــريض لجئـــت أســـعى ... إليـــك ولم ينهنهنـــي القعـــود

قال: فسمعت كلامه فبادرت نحوه، وبدرتها النساء فتعكفنَّ بها فأحسن بها فوثب مبادرًا نحوها فحبسه الرجال فجعلت، تجذب نفسها من النساء ويجذب نفسه من الرجال، حتى التقيا فاعتنقا وبكيا ثم شهقا فخرَّا ميتين؛ فخرج شيخ من بعض الأخبية فوقف عليهما فاسترجع ثم قال: رحمكما الله، أما والله لقد كنت لم أجمع بينكما في حياتكما لأجمعنَّ بينكما بعد موتكما؛ فأمر بهما فكفنا في كفن واحد ودفنا في قبر واحد، فسألت عنهما فقال: هذه بنتي وهذا ابن أخي بلغ بهما الحب ما ترى.

ومن ذلك أيضًا ما حُكي عن إسحاق الرافقي قال: كنت في مجلس بالرقة في عدة من الظرفاء وجماعة من القيان ومعنا فتى كأهيأ من رأيت من رأيت من الفتيان وعليه أثر ذلة الهوى يديم الأنين والبكاء فتغنت إحداهن:

إني لأبغض كل مصطبر عن إلفه في الوصل والهجر
الصبر يحسن في مواطنه ما للفتى المحزون والصبر

فنظر إليها الفتى وتبادرت عبراته، ثم وثب على قدميه ووضع يده على رأسه وقال:

غدًا يكثر الباكون منا ومنكم وتزداد داري من داركم بُعدا

ثم رمى بنفسه فسقط مجندلًا من قامته؛ فوثبنا إليه فحلمناه ميتًا.

ومن ذلك ما حكي عن جميل بن معمر العذري أنه دخل على عبد الملك بن مروان فقال له: يا جميل حدثني ببعض أحاديث عذرة فإنه يبلغني أنهم أصحاب أدب وغزل. قال: نعم يا أمير المؤمنين، إن آل بثينة انتجعوا الحي وقطعوا بلد آخر فخرجت أريدهم فغلطت الطريق وجنني الليل ولاحت لي نار فقصدتها حتى دنت ووردت على راع في أصل جبلي قد ألجأ غنمه إلى كهف في الجبل فسلمت فرد على السلام، وقال أحسبك قد ضللت الطريق. قلت: قد كان ذاك فأرشدنيه. قال: بل انزل حتى تريح ظهرك وتبيت ليلتك فإذا أصبحت وقفتك على الطريق فنزلت، فترحب بي وأكرمني وعمد إلى شاة فذبحها وأجج نارًا وجعل يشوي ويلقي بين يدي ويحدثني في خلال ذلك، ثم قام بإزار كان معه فقطع به جانب الخباء ومهَّد لي جانبًا وترك جانبًا خاليًا فلما كان في الليل سمعته يبكي ويشكو إلى شخص كان معه، فأرقت له ليلتي فلما أصبحت طلبت الإذن فأبى، وقال: الضيافة ثلاثة. فأقمت عنده وسألته عن اسمه ونسبته وحاله؛ فانتسب لي فاذا هو من بني عذرة وأشرافهم فقلت: يا هذا، وما الذي أحلك هذا الموضع؟ فأخبرني أنه يهوى ابنة عم له وتهواه وأنه خطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجها منه؛ لقلة ذات يده وأنه زوجها رجلًا من بني كلاب فخرج بها عن الحي فأسكنها في موضعه ذلك وأنه تنكر ورضي أن يكون راعيًا له؛

لتأتيه ابنة عمه فتراه ويراها وجعل يشكو إليَّ صبابته بها وشدة عشقه لها، حتى إذا جننا الليل وحان وقت مجيئها جعل يتقلقل ويقوم ويقعد كالمتوقع لها فأبطأت عن الوقت وغلبه الشوق فوثب قائمًا وأنشأ يقول:

ما بال ميـة لا تـأتي لعادتهـا ... أهاجهـا طـرب أم صـدها شـغل

لكـن قلبـي لا يلهيـه غـيرهم ... حتـى المـمات ولا لي غـيرهم أمـل

لـو تعلمـين الـذي بي مـن فـراقكم ... لمـا اعتـذرت ولا طالـت لـك العلـل

روحـي فـداؤك قـد هيجـت لي سقمًا ... تكـاد مـن حـره الأعـضاء تنفـصل

لـو أن غاديـة منـه عـلى جبـل ... لـزال وانهـد عـن أركانـه الجبـل

ثم قال: يا أخا بني عذرة، مكانك حتى أعود إليك فإني أتوهم أن مرا عرض لابنة عمي ثم مضى فغاب عن بصري فلم يلبث أن أقبل على يديه شيء محمول وقد علا شهيقه ونحيبه فقال: يا أخا بني عذرة، هذه بنت عمي أرادت أن تأتيني فاعترضها السبع فأكلها ثم وضعها عن يده وقال: على رسلك حتى أعود إليك، ومضى فأبطأ حتى أيست من رجوعه، ثم أقبل ورأس الأسد على يده فوضعه وجعل ينكت على أسنانه وهو يقول:

ألا أيهـا الليـث المحـل بنفـسه ... هبلـت لقـد جـرت يـداك لنـا حزنـا

وغـادرتني فـردًا وقـد كنـت آنـسًا ... وصـيرت بطـن الأرض ثـم لنـا سـجنا

ثم قال: يا أخا بني عذرة، إنك ستراني بين يديك ميتًا، فإذا أنا مت فاعمد إليَّ وإلى بنت عمي فادرجنا في كفن واحد واحفر لنا جدثًا واحدًا وادفنا فيه واكتب على قبري هذين البيتين:

كنـا عـلى ظهرهـا والعـيش في مهـل ... والعـيش يجمعنـا والـدار والـوطن

ففـرق الـدهر بالتـشتيت ألفتنـا ... فـاليوم يجمعنـا في بطنهـا الكفـن

وردَّ الغنم على صاحبها وأعلمه بقصتنا، ثم عمد إلى خناق فطرحه في عنقه فناشدته الله أن لا يفعل، فأبى وجعل يخنق نفسه حتى سقط بين يدي ميتًا فلما أصبحت كفنته وابنة عمه كما أمرني ودفنتهما في قبر واحد، وكتبت البيتين على قبرهما ورددت الغنم على زوجها وأعلمته بقصته فجعل يأكل كفيه أسفًا أن لا يكون جمع بينهما في حياتهما فهذا وما أشبهه كثير جدًّا.

وروي عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: كنا عند عروة بن الزبير وعنده رجل من بني عذرة، فقال له عروة: يا عذري، بلغني أن فيكم رقة وغزلًا فأخبرني ببعض ذلك. قال: لقد خلفت في الحي ثمانين مريضًا دنفًا عشقًا ما بهم غير الحب قد خامر قلوبهم.

باب من وصف الحب
وما فيه من شدة المرارة والكرب

واعلم أن الحب مع ما فيه من المرارة والنكد وطول الحسرات والكمد مستعذب عند أربابه مستحسن عند أصحابه حلو لا تعدله حلاوة ولا تعدله مرارة.

قال الكميت بن زيد:

الحب فيه حلاوة ومرارة ... سائل بذلك من تطاعم أو ذق
ما ذاق بؤس معيشة ونعيمها ... فيما مضى أحد إذا لم يعشق

وقال آخر:

يا أيها الدنف المعذب بالهوى ... إني بأحوال الهوى لعليم
الحب صاحبه يبيت مسهدًا ... ويطير عنه فؤاده ويهيم
الحب داء قد تضمن في الحشا ... بين الجوانح والضلوع مقيم
الحب لا يخفى وإن أخفيته ... إن البكاء على المحب نموم
الحب فيه حلاوة ومرارة ... والحب فيه شقاوة ونعيم
الحب أهون ما يكون مبرح ... والحب أصغر ما يكون عظيم

أنشدني أحمد بن يحيى ثعلب:

سلني عن الحب يا من ليس يعرفه ... ما أطيب الحب لولا أنه نكد
طعمان حلو ومر ليس يعدله ... في حلق ذائقه مر ولا شهد

وأنشدني إبراهيم بن محمد الواسطي لنفسه:

سلني عن الحب فإني به ... أعلم ذي وطء على أمل
طعمان ضدان فمستعذب ... وآخر أشرى من القتل
كم تيم الحب أقواما وذللهم ... وكم يد للهوى قد وارت الحفر

ولبعض المتأدبين أيضًا في مثله:

سلني عن الحب يا من ليس يعلمه ... عندي من الحب إن سائلتم الخبر
أنا الذي بالهوى مازلت مشتهرًا ... لاقيت فيه الذي لم يلقه بشر
الحب أوله عذب مذاقته ... لكن آخره التنغيض والكدر
كم تيم الحب أقوامًا وذلّلهم ... وكم يد للهوى قد وارت الحفر

أنشدني ابن أبي الرعد:

من كان لم يدر ما حب وصفت له ... إن كان في غفلة أو كان لم يجد
الحب أوله عذب وآخره ... مثل الحزازة بين القلب والكبد

أنشدني الوليد بن عبيد البحتري لأبي العتاهية:

أخلاي بي شجو وليس بكم شجو ... وكل امرئ مما بصاحبه خلو
أذاب الهوى جسمي ولحمي وقوتي ... فلم يبق إلا الروح والجسد النضو
رأيت الهوى جمر الغضا غير أنه ... على كل حال عند صاحبه حلو
وما من محب نال ممن يحبه ... هوى صادقًا إلا سيدخله زهو

قال وأنشدني ابن أبي الدنيا:

الحب يترك من أحب مدلهًا ... حيران أو يقضي عليه فيسرع
الحب أهونه ثقيل فادح ... يهوي الجليد من الرجال فيصرع

باب ما في معرفة الهوى وما كان اسمه في البادية أولًا

واعلم أن الهوى عندهم هو الهوان الصراح والبلاء المتاح؛ لأنه يهين الكريم ويذل العزيز ويدله العاقل ويحطُّ منزلة الشريف.

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت: الهوى هو الهوان وإنما غلط باسمه واشتق من طبعه، ولن يعرف ما أقول إلا من أبكته المنازل والطلول، وأنشأت تقول:

ليت الهوى لذوي الهوى لم يخلق ... بل ليت قلبي بالهوى لم يعلق
إن الذي علق الهوى بفؤاده ... كمنوط دون النساء معلق
لا يستطيع نزوله لشقائه ... لكن إليه كل هم يرتقي
إن الهوى لهو الهوان بعينه ... ما ذاق طعم الذل من لم يعشق

وأنشدت لغيرها أيضًا:

إن الهوان هو الهوى نقص اسمه ... فإذا هويت لقد لقيت هوانا
وإذا هويت لقد تعبدك الهوى ... فاخضع لحبك كائنًا من كانا

أنشدنا أبو عبد الله الواسطي لنفسه:

لم يدر بسا بؤس الحياة ولينها ... إلا الذين من الهوى بمكان
كم من عزيز قد ألمَّ به الهوى ... فأقرَّ بعد كرامة بهوان
ليس الهوى إلا الهوان ونونه ... نُقصت كفعل الزور والبهتان
لين الحياة إذا نظرت وبؤسها ... بين الوصال وغصة الهجران
ما العشق عندي باختيار إنما ... ذاك البلاء يتاح للإنسان

قال وأنشدني أبو العيناء:

وما كيِّس في الناس يحمد رأيه ... فيوجد إلا وهو في الحب أحمق

وما من فتى ما ذاق بؤس معيشة ... من الدهر إلا ذاقها حين يعشق

باب ما سئل عنه أهل الصدق
من تمام خلات العشق

قال الأصمعي لأبي وائل الأضاخي: ما تقول في العشق؟ فقال: إن لم يكن عصارة من الشجر فهو ضرب من الجنون، وأنشا يقول:

بقلبي شيء لست أعرف وصفه ... على أنه ما كان فهو شديد

تمرُّ به الأيام تسحب ذيلها ... فتبلى به الأيام وهو جديد

لعمري أن بذلك ما وجب لهم الدعاء فصار مفترضًا على الأدباء كالفرض اللازب والحق الواجب الجليل الخطب وفادح الأمر.

أخبرني أحمد بن عبيد، قال: أخبرني الأصمعي قال: رأيت أبا السائب المخزومي متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم ارحم العاشقين واعطف عليهم قلوب المعشوقين بالرأفة والرحمة يا أرحم الراحمين. فقلت: يا أبا السائب، أفي هذا المقام تقول هذا المقال؟ فقال: إليك عني، الدعاء لهم أفضل من حجه بعمرة. ثم أنشأ يقول:

يا هجر كفَّ عن الهوى ودع الهوى ... للعاشقين يطيب يا هجر

ماذا تريد من السذين جفونهم ... قرحى وحشو صدورهم جمر

وسوابق العبرات فوق خدودهم ... هطلًا نلوح كأنها القطر

صرعى على جسر الهوى لشقائهم ... بنفوسهم يتلاعب الدهر

قال: وخبرت عن الأصمعي أيضًا: أنه قال: رأيت جارية وهي تقول: اللهم مالك يوم القضاء وخالق الأرض والسماء ارحم أهل الهوى واستنقذهم من عظيم

البلاء واعطف عليهم قلوب أودائهم بالصفاء؛ فإنك سميع النجوى قريب لمن دعا. ثم أنشأت تقول:

يـــا رب إنـــك ذو مَـــنٍّ ومغفـــرة ... بيـــت بعافيـــة منـــك المحبينـــا
الذاكرين الهوى من بعد ما سهروا ... حتـى يظلـوا عـلى الأيـدي مكبينـا

فقلت: يا هذه أتغنين وأنت في الطواف؟ فقالت: إليك عني، لا يرهقك الحب. فقلت لها: وما الحب؟ وأنا به أعرف منها. فقالت: جلَّ أن يخفى ودقَّ عن أن يرى له كمون ككمون النار في الحجر أن قدحته أوراك وإن تركته توارى. قال: فتبعتها حتى عرفت منزلها، فلما كان من الغد جاء مطر شديد فمررت ببابها وهي قاعدة مع أتراب لها زهر، يقلن لها: لقد أضرَّ المطر ولولا ذلك لخرجنا إلى الطواف، فأنشأت تقول:

قـــالوا أضربنـــا الـــسحاب بقطـــره ... لمـــــا رأوه لعـــــبرتي يحكـــــي
لا تعجبـــوا ممـــا تـــرون فـــإنما ... هـــذا الـــسحاب لرحمتـــي يبكـــي

وزعم قوم أنه لا ذنب على أهل الهوى ولا وزر وأن خطاياهم تمحص عنهم بطول بلائهم وكثرة زفراتهم وما لقوا من الشقاء بأودائهم. وأخبرني أحمد بن يحيى عن عبد الله بن شبيب عن رجل ذكره قال: كنت عند مالك بن أنس فأتاه شاب فقال: إني قد قلت أبياتًا ذكرتك فيها فاسمعها. قال: لا حاجة لي فيها. فقال لي: أحب أن تفعل. قال: هات فقال:

سلوا مالك المفتي عـن اللهـو والـصبى ... وحـب الحـسان المغنجـات الفـوارك
يخـــبركم أني مـــصيب وإنـــما ... أسـلي همـوم الـنفس عنـي بـذلك
فهـل في محـب يكـتم الحـب والهـوى ... آثـــام وهـــل في ضـــمة المتهالـــك

فسرى عن مالك وقال: لا إن شاء الله، وكان ظن أنه هجاه.

أخبرني أحمد بن يحيى ثعلب عن عبد الله بن شبيب عن شيخ من عاملة قال: مر ابن مرجانة الشاعر بسعيد بن المسيب فقال: هذا ابن مرجانة. قالوا: نعم. قال: هذا الذي يقول:

سألت سعيد بن المسيب مفتي الـ ـمدينة هل في حب دهماء من وزر
فقال سعيد بن المسيب إنما تلام على ما تستطيع من الأمر

والله ما سألني إنسان عن شيء من هذا ولو سألني لأجبت.

قال وسئل شريك بن عبد الله القاضي عن العُشَّاق فقال: أشدهم حبًّا أعظمهم أجرًا.

وأنشدني محمد بن يحيى لمسلم:

فو الله لا أدري وإني لسائل بمكة أهل العلم هل في الهوى وزر
وهل في اكتحال العين بالعين ريبة إذا ما التقى الإلفان لا بل به أجر

وأنشدني إبراهيم الأزدي لنفسه:

ما العشق في الأحرار مستنكر وما على العاشق من وزر

قال وأنشدني الجماش:

إذا قبل الإنسان إنسان يشتهي ثناياه لم يأثم وكان له أجرا
فإن زاد زاد الله في حسناته مثاقيل يمحو الله بها وزرا

وقال سائب -راوية كثير-: حضرت مع كثير عند ابن أبي عتيق فأنشدنا أبيات ابن قيس الرقيب التي يقول فيها:

خبروني هل على رجل عاشق في قبلة حرج

فقال كثير: لا، إن شاء الله ونهض.

وأنشدني علي بن العباس ابن رومي:

أيها العاشق المعذب اصبر ... فخطيات ذي الهوى مغفورة
زفرة في الهوى أحطّ لذنب ... من غزاة وحجة مبرورة

وقال المؤمل وأحسن والله في قوله:

صف للأحبة ما لقيت من سهر ... إن الأحبة لا يدرون ما السهر
حسب المحبين في الدنيا عذابهم ... والله لا عذبتهم بعدها سقر

وقال الأصمعي: رأيت جارية بالطواف وهي تقول:

لن يقبل الله من معشوقة عملًا ... يومًا وعاشقها حيران مهجور
وليس يأجرها في قتل عاشقها ... لكن عاشقها لا شك مأجور

فقلت: يا جارية، أفي هذا المقام أما حياء فيردعك؟ فأنشأت تقول:

بيض أوانس ما هممن بريبة ... كظباء مكة صيدهن حرام
يحسن من لين الكلام زوانيا ... ويصدهن عن الخنى الإسلام

وقيل: قيل أيضًا: إن قتيل الهوى لا قود له وإن دماء أهل الهوى تبطل وتهدر.

ومن ذلك ما حُكي عن ابن عباس أنه أتي بشاب محمول قد صار كالشن البالي فقيل له: استشف الله لهذا المريض يا ابن عم رسول الله. فقال له ابن عباس: ما علتك يا فتى؟ فلم يحر إليه جوابًا، ثم رفع رأسه وقال بلسان فصيح طليق:

به لوعة لو تشتكي الصمُّ مثلها ... تفطرت الصم الصلاب وخرت
ولو قسم الله الذي بي من الهوى ... على كل نفس حظها ما أبت

ثم خفت خفتة، ثم فتح عينيه وهو يقول:

بنا من جوي الحب المبرح لوعة ... تكاد لها نفس الشفيق تذوب

ولكنما أبقى حشاشة ما ترى ... على ما به عود هناك صليب

فقال ابن عباس: ممن الرجل؟ فقال: من بني عذرة ثم شهق شهقة فمات، فقال ابن عباس لجلسائه: هل رأيتم وجهًا أليق ولسانًا أذلق من هذا؟! هذا والله قتيل الهوى لا قود له ولا دية، وإلى الله راغب في العافية مما نرى.

وأنشد أحمد بن يحي ثعلب:

إذا هن ساقطن الحديث لذي الهوى ... سقوط حصى المرجان من كف ناظم

رمين فاصمين القلوب فما ترى ... دمًا سائلًا إلا جوى في الحيازم

فأي دم لو تعلمين جنيته ... على الحر جاني مثله غير سالم

أما أنه لو كان غيرك أرقلت ... إليه القنا بالمرهفات الصوارم

ولكن وبيت الله ماطل مسلمًا ... كفر الثنايا واضحات المعاصم

وأنشدني أبو عبد الله الواسطي لنفسه:

قضى الله في القتلى قصاص دمائهم ... ولكن دماء العاشقين جبار

لقتل دماء العاشقين وثارها ... لدى الحدق المرضى وذلك ثار

قال الأحوص بن محمد الأنصاري:

ما تذكر الدهر لي سعدي وإن بعدت ... إلا ترقرق ماء العين فاطرد

يا للرجال لمقتول بلا ترة ... لا يأخذون له عقلًا ولا قودا

وحدثني العنزي أبو علي عن الزبير بن بكار، عن محمد بن عبد الله بن مسلم بن جندب، عن أبيه قال: خرجت مع أبي سفيان فلقينا نسوة ينظرون العقيق، فيهن امرأة حسناء العين فقال أبي:

ألا يا عباد الله هذا أخوكم ... قتيلًا فهل فيكم به اليوم ثائر
خذوا بدمي إن مت كل خريدة ... مريضة طرف العين والجفن ساخر

قال: فالتفتت إلى امرأة فقالت: يا بني احتسب أباك واغتنم نهبيك فإن قتيلنا لا يودي وأسيرنا لا يفدى.

وأنشدني أحمد بن يحيى لجرير بن الخطفي:

هل في الغواني لمن قتلن من قود ... أو من ديات لقتلى الأعين الحور
تبيت ليلك في وجد مخامره ... كان في القلب أطراف المسامير
ما كنت أول محزون أضرَّ به ... برح الهوى وعذاب غير تفتير

وقال أيضًا:

إذا كحلن عيونًا غير مقرفة ... ريشن نبلًا لأصحاب الصبي صيدا
ما بال قتلاك لا تخشين طائلهم ... لم تضمني دية منهم ولا قودا

وقال عمر بن لجا:

تراءت كي تكيدك أم عمرو ... وكيدك بالتبرج ما تكيد
وكيف قتلتني يا أم عمرو ... ولا قود عليك ولا حدود

وقال أعرابي وما أساء:

أقاتلتي يا للرجال حبيبة ... إلا بلاد جرم لديها ولا ذحل

فقـيم دمـاء العاشـقين مـضاعة ... بـلا قـود عنـد الحسان ولا عقـل

وأحسن والله المؤمل حيث يقول:

إني قُتلـت بـلا جـرم وقـاتلتي ... يـا قـوم جاريـة في طرفهـا حـور
لمـا رمـت مهجتـي قالـت لجارتهـا ... إني قتلـت قتـيلًا مالـه خطـر
قتلـت شـاعر هـذا الحـي مـن مـضر ... فـالله يعلـم مـا تـرضى بـذا مـضر
شـكوت مـا بي إلى هنـد فـما اكترثـت ... يـا قلبهـا أحديـد أنـت أم حجـر
إن كنـت جاهلـة بالحـب فـانطلقي ... إلى القبـور ففـيمن حلهـا عـبر

وقد قيل أيضًا: إن قتيل الهوى شهيد على ذلك أجمع، فالله يعلم للأدباء وأهل العلم والظرف لموجود الأخبار ومسند الآثار.

حدثنا قاسم الزبيدي بإسناد ذكره عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تعشق فعف فهو شهيد.

وقال بشار بن برد العقيلي:

قـرب دار الحبيـب قـرة عـين ... وكـان البعـاد في القلـب ثكـل
إن مـوت الـذي يمـوت مـن الحـب ... عفيفًـا لـه عـلى النـاس فـضل

ولبعض المتأدبين:

ليتنـي مـت والهـوى داء قلبـي ... إن ميـت الهـوى لميـت شـهيد

ولقد أحسن جميل حيث يقول:

ألا ليـت شـعري هـل أبيـتن ليلـة ... بـوادي القـرى إني إذا لـسعيد
يقولـون جاهـد يـا جميـل بغـزوة ... وأي جهـاد غـيرهن أريـد

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد

ومَلُح الحكمي حيث يقول:

ولقد كنا روَّينا عن سعيد عن قتاده
عن سعيد بن المسيب أن سعد بن عباده
قال من مات محبًّا فله أجر الشهاده

واعلم بأن العشق يحسن بأهل العفة والوفاء، ويقبح بأهل العهر والخنى؛ مع أن الهوى قد فسد وقلَّ الوفاء وكثرت الخيانة والغدر واستعمل الناس في العشق شيئًا ليس من سنة الظرف ولا من أخلاق الظرفاء؛ وذلك أن أحدهم متى ظفر بحبيبه وأصاب الغفلة من رقيبه لم يعف دون طلب المعنى فهذا فساد الحب ودمار العشق وبطلان الهوى وتكدير الصفاء.

أنشدني عبد الحميد الملطي:

قد فسد الحب وهان الهوى وصار من يعشق مستعجلا
يريد أن ينكح أحبابه من قبل أن يسهر أو ينحلا

ولأحمد بن أبي فنن في مثل ذلك:

أنا لا أبدي بغدر أبدًا فإذا ما غدرت لم أترك
واجدًا منها بديلًا مثل ما وجدت مني بديلًا لا تشك
أتراني أقعد الليل لها ساهرًا أطلب وصلًا قد هلك
وهي فيما تشتهي لاهية مت إن دار بهذين فلك
كان للناس وفاء مرة فانقضى وانحلت اليوم التكك

وحدثني أبو العيناء قال: حدثني الجاحظ قال: كتب بعض الظرفاء إلى ملك جارية أبي جعفر:

يـــا ملـــك قـــد صرت إلى خطـــة ... وكنـــت فيهـــا منـــك ذا ضـــيم
يلـــومني النـــاس عـــلى حـــبكم ... والنـــاس أولى فيـــك بـــاللوم

فكتبت إليه:

إن تكـــن هاجـــت بكـــم ... فـــسكن الغلمـــة بالـــصوم
لـــيس بـــك الـــشوق ولكـــنما ... تـــدور مـــن هـــذا عـــلى الكـــوم

واعلم أن العشق لا يكون مع الفسق، ومتى مازج العشق الفسق ضعفت قواه وانقصمت عراه، وهم لا يريدون غير الرفث ويسمونه مسامير الحب، وزعموا أن أسباب الحب لا تتصل إلا به ولا يزال منحلًا حتى يشدها ذلك وينشدون:

العـــشق داء دوى لا دواء لـــه ... إلا العنـــاق وإفـــشاء الـــسريرات
ولـيس يلتـذ طيـب العـيش مـن أحـد ... إلا بعـــضك أو رشـــف الثنيـــات
ووضعك الصدر فـوق الـصدر تجمعـه ... ضـما إليـك عـلى ظهـر الحـشيات

وينشدون أيضًا في مثل ذلك:

رأيـــت الحـــب لـــيس لـــه دواء ... ســوى وضـع البطـون عـلى البطـون
وإلـــصاق الثنابـــا بالثنايـــا ... وأخـــذ بالمناكـــب والقـــرون

وقد ناظرت بعضهم مرة من المرار، فاحتج بخبر ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فاحتجوا بظاهر الخبر ولم يفصحوا عن التأويل، وهذا خلاف ما يفعل أهل الظرف والأدب، وغير هذا جاء عن العرب، وقد بلغني عن الأصمعي أنه قال: قلت لأعرابي مرة: ما العشق فيكم؟ قال: النظرة بعد النظرة وإن كانت القبلة بعد

القبلة فهو الوصول إلى الجنة. فقلت: ليس العشق عندنا كذلك. قال: فما هو عندكم؟ قلت: تفرق بين رجليها وتجمل نفسك عليها. فقال: بأبي أنت لست بعاشق؛ إنما أنت طالب ولد.